

تفسير ابن كثير

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين { فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب } أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف { حتى إذا أثخنتموهم } أي أهلكتموهم قتلا { فشدوا الوثاق } الأسارى الذين تأسروهم ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أسارهم مجانا وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ فقال : { ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم } ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله تعالى : { فإذا انسلكوا الشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم } الآية رواه العوفي عن ابن عباس Bهما وقاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وقال الآخرون وهم الأكثرون : ليست بمنسوخة ثم قال بعضهم : إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط ولا يجوز له قتله وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر وقال ثمامة بن أثال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال له : [ما عندك يا ثمامة ؟] فقال إن تقتل تقتل ذا دم وإن تمنن تمنن على شاكرك وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضا وهذه المسألة محررة في علم الفروع وقد دللنا على ذلك في كتابنا الأحكام والله سبحانه وتعالى الحمد والمنة .

وقوله D : { حتى تضع الحرب أوزارها } قال مجاهد : حتى ينزل عيسى بن مريم E وكأنه أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم : [لا تزال طائفة من أمتي طاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال] وقال الإمام أحمد : حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش عن إبراهيم بن سليمان عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير قال : إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني سببت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت : لا قتال فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : [الآن جاء القتال لا تزال طائفة من أمتي طاهرين على الناس يزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام والخيل معقود في نواصيها

الخير إلى يوم القيامة] وهكذا رواه النسائي من طريقين عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل السكوني به .

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا داود بن رشيد حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان B قال : لما فتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح قالوا يا رسول الله سببت الخيل ووضعت السلاح ووضعت الحرب أوزارها قالوا لا قتال قال : [كذبوا الآن جاء القتال ولا يزال الله تعالى يرفع قلوب قوم يقاتلونهم فيرزقهم منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك وعقر دار المسلمين بالشام] وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رشيد به والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نفيل كما تقدم وهذا يقوي القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب وقال قتادة { حتى تضع الحرب أوزارها } حتى لا يبقى شرك وهذا كقوله تعالى : { وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين الله } ثم قال بعضهم : حتى تضع الحرب أوزارها أي أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله D وقيل أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى وقوله D : { ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم } أي هذا ولو شاء الله لا نتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده { ولكن ليبلو بعضكم ببعض } أي ولكن شرع لكم الجهاد وقاتل الأعداء ليختبركم ويبلو أخباركم كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتى آل عمران وبراءة في قوله تعالى : { أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين } .

وقال تبارك وتعالى في سورة براءة : { قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم } ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال : { والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم } أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن كثير بن مرة عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ويرى مقعده من الجنة ويزوج من الحور العين ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر ويحلى حلة الإيمان] تفرد به أحمد C .

(حديث آخر) قال أحمد أيضا : حدثنا الحكم بن نافع حدثني إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعيد عن خالد بن معدان عن المقدام بن معد يكرب الكندي B قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ويرى مقعده من الجنة ويحلى حلة الإيمان ويزوج الحور العين ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع

الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوفار مرصع بالدر والياقوت الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه [وقد أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجة وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو Bهما عن أبي قتادة B أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين] وروي من حديث جماعة من الصحابة Bهم وقال أبو الدرداء B : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته] ورواه أبو داود والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جدا .

وقوله تبارك وتعالى : { سيهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم } وقوله D { ويصلح بالهم } أي أمرهم وحالهم { ويدخلهم الجنة عرفها لهم } أي عرفهم بها وهداهم إليها قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحدا وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه ذكره ابن أبي حاتم C وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا رواه البخاري من حديث قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري B أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [إذا خلا المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتفاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا] .

ثم قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم } كقوله D : { ولينصرن الله من ينصره } فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : { ويثبت أقدامكم } كما جاء في الحديث [من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة] ثم قال تبارك وتعالى : { والذين كفروا فتعسا لهم } عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد ثبت الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : [تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش !] أي فلا شفاه الله D وقوله سبحانه وتعالى : { وأضل أعمالهم } أي أحبطها وأبطلها ولهذا قال : { ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله } أي لا يريدونه ولا يحبونه { فأحبط أعمالهم }